خُطْبةُ الكتاب

إن الحمد لله نحمده ، ونستعين به ونستغفره ، ونتوب إليه من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد اللهُ فلا مضل له ، ومن يُضلل فلا هاديَ له ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، وحبيبه ومصطفاه ، اللهم صَلِّ وسلِّم وبارك على سيدنا محمد وعلىٰ آله وأصحابه ، ومن رُزِق محبته واتِّباعه إلى يوم الدين .

وبعد ؛

فإنَّ الفكر الإسلامي بما يشتمل عليه من حيويّةٍ فياضةٍ ، وتَألُّقٍ مستمر ، وفورانٍ دائب ، وواقعية عجيبة مع مثالية رفيعة ، جدير بالدرس والبحث المنهجي ، والغوص على كنوزه من الكتب الصفراء القديمة ذات القيمة العلمية العظيمة ، ولكن هذه الكنوز ظَلَّت رهن النسيان والإهمال ، ولم تُرزق من يكشف اللثام عن حقيقتها الناصعة ، فَمَثَلُها كمثل التبر في صخور الأرض يمر به الناس لا يَدْرون له وجوداً ولا يُحسّون له رِكْزاً .

أجل ؛ هذه قصة فكرنا الإسلامي العظيم عبر الأيام ، حقيقة ضائعة ، وكنز مطمور ، ونور مخبوء ، ثم نحن بعدُ نذهب إلى غيرنا من أمم الأرض من هم دوننا حضارةً ورقياً وتاريخاً نستجديهم فكراً أحسن ما يُقال فيه إنه فُصِّل على مقاسهم ، وخِيط على مقدار فهمهم وإدراكهم ، وهو لا يصلح لنا بوجه من الوجوه لأنه ليس نابعاً من أرضنا ولا من قِيَمنا

ومفاهيمنا ، وهذه هي المشكلة في جيلنا المعاصر ؛ انبهار بفكر الغرب وزهد بعلومه ، وكان الأجدرَ والأفْيدَ والأفضلَ زهدٌ بفكرهم وطَمعٌ بعلومهم ، لأن العلم ذو هُوية عالمية لا طابع إقليمي ، ولنا من فكرنا الإسلامي الناضج ما يُغنينا عن أي فكر آخر أو فلسفة لأنه فكر نابع من تشريع إلهي ، ثم هو وإن كان عالمياً إلا أنه عربي الأرُومة ، يَعربي النِّجار .

هذا الكنز الثمين آن أن يجد من قومه من يعتني به فيستخرجه من مناجمه ، ويَميزه عن الأخلاط ثم يصوغ منه السَّبائك الغوالي يضم بعضها إلى بعض ، فإذا هي قلائد في نحور الحِسَان الغِيد ، وهذا ما فعلتُ .

قد انتهى زمن العقوق يا فكرنا الإسلامي العظيم ، وجاء وقت الحقوق ، وما علينا لو أنفقْنا العمر وأرخصنا كل ثمين وغالٍ في هذه الغاية الشريفة ، ولنا قدوة بأمة اليابان التي انتهت عشية الحرب الكونية الثانية ، ثم ها هي اليوم انبعثت كالمارد الجبار يوم رجعت إلى هُويتها وفكرها الأصيل ، وأخذت العلوم من الأمم الأخرى عن طريق البعثات العلمية المتتابعة ، فَتِلك والله أمة تستحق أن تعيش . . .

إن المعاصرة لا تتناقض أبداً مع الأصالة ، فهما مقولتان متكاملتان لا متناقضتان وليس بينهما علاقة التَّضَادّ ولا التناقض ، وقد ذكرتُ هذه العبارة لكثير من الشباب المثقف ولا أزال ، فالأصالة هي الهُوية ، والفكر الإسلامي هو فقط الذي يمثل هذه الهُوية للأمة العربية والإسلامية دون غيره . ولا غضاضة في هذا الكلام على إخوة لنا في الوطن من غير المسلمين ، فالفكر الإسلامي الأصيل يستوعبهم ويعطيهم من المكانة والحق والمنزلة والحرية ما لا يجدونه في ظل أي فكر آخر على وجه

الأرض ، الفكر الإسلامي الصحيح فكر العلم والمعرفة والحضارة الحقيقية والحكمة والموعظة الحسنة هو ذاته دون غيره هُويَّتُنا منها ننطلق وإليها نعود ، وكل ثقافة أو استغراب أو دراسة أو علم كوني لا يقوم على أساس متين من هذا الولاء لِهُوية الأمة التي ينتسب إليها إنما هو عبث لا طائل تحته .

أقول هذا وأنا بحمد الله أملك من الحُجج والبراهين الدامغة ما أستطيع أن أقف وقفة الراسخ المتمكن ، أتحدَّى بالحجة كل من يقول غير هذا كائناً من كان ، ومنتسباً إلى أية مدرسة فكرية قديمة أو معاصرة ، وأعتقد جازماً أني سأنتصر في هذا الصراع الفكري الرهيب ، وسأكسب الجولة مهما كان الخصم ومهما كانت منزلته وعلمه وشهاداته . أقول هذا وأرفض كل الرفض مقولة (التراث) فليس الفكر الإسلامي تراثاً بل هو فكر حيٌّ بكل معاني الحياة الثرّة الفياضة كالنهر الهادر ، وما التراث إلا حُكْم على الأمة العربية بالموت وجعْلُ ما تركه الأجداد من علوم وأفكار وكُتُب ومَعْلَمات تَركةً عتيقةً نتوارثها فيما بيننا كما يتوارث أهل الدار الطُّربوش القديم لجدهم وقَباءه وبابوجه . . فهل فكرنا الإسلامي الفياض أشياء عتيقة من تركة أمةٍ ماتت وانتهتْ ولم يبق إلا ذكريات باهتة؟ ربما أراد بعض المستشرقين أن نرى ذلك لأنه هو يَراه ، فهو ليس من هذه الأمة في قليل ولا كثير ، أحسن أحواله معها الحياد الإيجابي ، ونحن لا نلومه على أي موقف يقفه منا إلا بعد البيان والمناظرة ، أما نحن فلماذا نقف هذا الموقف المُهين من أمتنا الرائدة الماجدة؟ وأي تراث هذا؟ ولماذا نُصِرّ على هذه الأغلوطة؟ اللهم غَفْراً . . . إن ما نسميه تراثاً هو في حقيقة أمره إما فكر أو علم أو فن ، وكل أولئك نابع من الإسلام الذي بعث الحضارة العربية وأعطاها الحياة والبقاء والخلود ، فلماذا لا نسمي الأشياء بأسمائها الأصلية . فنقول

فكر إسلامي ، وعلم إسلامي ، وفن إسلامي ، ويوم نقول إسلام ، فالعرب هم مادة الإسلام وهيولاه . .

وبعد ؛

فما هو الفكر الإسلامي؟ وما علاقته بالعلم والفن؟

والجواب ؛

في كل أمة توجد فلسفة لديهم يُقيمون على ضوئها نظرتهم الشاملة إلى الإنسان والكون والمبدأ والمعاد وإلى وراء الطبيعة من الغيب وإلى قضية الألوهية وقضايا الوحي والنبوة وما شابه ذلك ، هذه الفلسفة تمثِّل الأساس الذِّهْني للأمة ولا فرق بين أن يكون مصدرها سماوياً فتُسمّى ديناً ، وبين أن يكون مصدرها وضعياً فتُسمّى فلسفةً أو حكمةً أو شيئاً من هذا .

هذا النسيجُ من التصورات الذهنية وما ينتج عنها من مواقف وأبعاد هو الأساس الذي تبني عليه الأمة جوهر وجودها الإنساني الحضاري بين الأمم ، فتتميز به عن غيرها ، فمثاله كالبصمة التي تميّز المرء عن غيره حتى لا تشبه بصمة في الدنيا بصمة أخرى ، وصفوة القول أن هذا الذي ذَكرتُ هو (هُويّة الأمة) التي تتفرد بها وتتميّز عن بقية الأمم والشعوب .

فهنالك مثلاً فكر ألماني ، وفكر أمريكي ، وفكر ماركسي ، وفكر نصراني ، وفكر يهودي ، وفكر روماني ، وقس على ذلك . . .

ولكنّ العلم ذو هُوية عالمية فليس هنالك عِلْم عربي أو عِلْم تركي أو عِلْم ألماني ، بل هنالك مذاهب في العلوم لا تَعْدُو أن تكون نظرات اجتهادية ضمن البحث العلمي الواحد ، والأممُ قديماً كانت تَقْبِس العلوم بعضُها عن بعض وتزيد فيها . وما الحضارة العلمية الحديثة إلا

وليدة العلوم التي أخذوها عن العرب الذين أخذوا علوم الأمم وزادوا عليها .

أما الفن . فهنالك فنٌّ عالمي كالغناء والموسيقا والرسم ، ولكنه يتطبع بطابع الأمة التي وُجد فيها هذا الفن ، فتقول موسيقا شرقية ، وغناء عربي ، وليس الانتساب للأمة في الفنون إلا كالماء لا لون له إنما يأخذ لون الإناء الذي هو فيه . ومِنْ تَفَاعُلِ الفكر مع الفن مع العلم تَتكوَّن الحضارة . . فإما أن تكون حضارةً أصيلةً إذا كان الفكر أصيلاً والفن متطبعاً بالأمة والعلم محترماً وذاتياً . وإما أن تكون حضارة هجينة إذا كان الفكر لقيطاً والفن مُزَيَّفاً والعلم عَارِيةً .

أما خصائص الفكر الإسلامي فأوسع من أن يستوعبها كتاب كهذا ، لكني اقتصرتُ على الأسس والمبادىء المهمة الرئيسية وتركتُ ما وراء ذلك لفرصة أوسع أهْتبلُها إن شاء الله .

بقي عليَّ كلمة لابد لي أن أقولَها ؛ وهي ؛ هل في البحث العلمي في الفكر الإسلامي خصائص ما تخيف؟

البحث العلمي أصلاً لا يأتي إلا بخير ، والفكر الإسلامي الحكيم العظيم كله خير ونور ، ومتى كان العلم مخيفاً؟

أبداً . . . إن الجهل هو المخيف ، وإن العالِم إن لم ينفعك لا يضرك من حيث يضرك الجاهل ولا ينفعك .

إننا نؤمن بأن الإسلام كله حكمة وموعظة حسنة وقدوة صالحة ولطف وذوق وجمال ورحمة ، كله رحمة ، ليدخل الناس بهذا الدين عن طواعية وقناعة ورضا ، ليدخلوا فيصبحوا من أنصاره بعدما كانوا لجهلهم به من أعدائه ، هذا هو الإسلام الحقيقي ، وما عدا ذلك فأشهد أنه ليس من الإسلام في شيء ولو سمّي زوراً بالإسلام ، وصدق الله تعالىٰ حيث يقول

في قرآنه المُعجز ؛ موجِّهاً لنا معلِّماً ومرشداً ومربّياً ، ولو كان الخطاب ظاهراً موجَّهاً للشخصية المحمدية الرحيمة المثالية : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾

[آل عمران : ١٥٩]

صدق الله العظيم

اللهم هل بلَّغت . . . اللهم فاشهدْ . . .

obeikandl.com